

الجولة السادسة

رأينا في جولة سابقة كيف أن ما استقر عليه العمل في هذه الأمة عند أهل العلم وما دعا إليه الأستاذ البنا واحد • ورأينا أن ما استقر عليه العمل عند أهل العلم في باب العلوم التي أسميناها « **الفقهين الكبير والأكبر** » كان لأبد أن يكون ، ورأينا الضرورات التي فرضت وجوده وتفرض استمراره ورأينا المحامل الصحيحة لكلام سيد قطب رحمه الله في هذه الشؤون وأنه كان يتكلم في واد آخر غير ما نحن فيه وغير ما تكلم عنه الأستاذ البنا بما لا يتناقض مع موقف أهل العلم وموقف الأستاذ البنا رحمه الله ، وسنرى في هذه الجولة الكثير مما يعمق فهمنا لقضية **الفقهين الكبير والأكبر** :

- ١ -

خلف لنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب والسنة فيهما بيان كل شيء يحتاجه البشر ، وكان شيئاً عادياً أن تنشأ علوم كثيرة تخدم الكتاب والسنة ، وأن تنبثق عن الكتاب والسنة علوم كثيرة وأن توجد نتيجة لذلك ملايين المؤلفات ، إذ التأليف في كل عصر وليد الحاجة وأثر العلم ، وفي كل عصر وجد علماء كثيرون وكان لكل عصر حاجاته فكان أن وجدت هذه المكتبة الاسلامية الضخمة التي لم يعرف العالم لها مثيلاً في مجموع ما حوته •

ونشأت علوم القرآن الكريم وتوسعت ونشأت علوم الحديث وتوسعت ونشأت علوم اللغة العربية وتوسعت ، وكل علم من هذه العلوم دخل فيه كثير من الاختصاصات وتفرع عنه كثير من التحقيقات وألف في الصغيرة والكبيرة من ذلك ليسع التأليف احتياجات الناس وأصنافهم •

وكما نشأ هذا وتطور فقد نشأت علوم التاريخ والفلك والجغرافيا والطب وغير ذلك من علوم اقتضتها طبيعة سير الأمة الاسلامية ، واقتضاه

فرض الاسلام على المسلمين أن يوجد مختصون في كل جانب يحتاجه المسلمون .

وكما نشأ هذا كله ووجد فيه اختصاصيون ومحققون ومنتبوعون ومنقحون فقد نشأت علوم ثلاثة وتوسعت ، هذه العلوم الثلاثة هي : علم العقائد الاسلامية وعلم الفقه الاسلامي وعلم التصوف والسلوك والأخلاق ورافق وجود علم الفقه ظهور علم أصول الفقه الذي يوضح طريقة استنباط الحكم الفقهي ويضبط هذه الطريقة ، واقتضى وجود علم العقائد الاسلامية أن يوجد بجانبه علم المنطق الذي يوضح طريقة الوصول الى الحكم العقلي أو العادي ، ويضبط طرق الوصول الى الحكم العقلي أو العادي وكيف تقوم الحجة وكيف تدحض وغير ذلك مما يقتضيه ضبط الأحكام العقلية والتصورات وكانت نشأة هذه العلوم الخمسة الأخيرة نشأة عادية تقتضيها طبيعة الأشياء ومسار الامة الاسلامية فلم يكن عجباً أن نشأت بل كان من العجب ألا تنشأ .

* * *

قلنا انه شيء عادي أن تنشأ العلوم الخمسة التي ذكرناها ، وهي : علم العقائد وعلم الفقه وعلم التصوف والسلوك والأخلاق وعلم أصول الفقه وعلم المنطق ، فالاسلام ربط ما بين التكليف وبين العقل .

والعقل وسائله لاصدار الأحكام متعددة وأحياناً يصيب وأحياناً يخطيء . فإن يتكلم المسلمون في مثل هذا فذلك عادي تماماً ومن ثم لا بد أن ينشأ مثل علم المنطق . والقرآن الكريم لحكم كثيرة سجلناها في كتابنا « الأساس في التفسير » لم يضع الأحكام بجانب بعضها ولم يضع المسائل ذات الموضوع الواحد بجانب بعضها كما أن السنة جاءت بحسب الحاجة وبحسب النازلة وجاءت جواباً على سؤال أو توجيهها مبتدأ وكانت تسجيلاً لحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم لم تكن مسألتها بجانب بعضها ، فكان شيء عادي أن يبذل جهد آخر وهو أن يجمع ما ورد في الموضوع الواحد من الكتاب والسنة بجانب بعضه سواء في باب العقائد أم في باب العمليات أم في باب الأخلاق والسلوك . وأن يتوسع ذلك بتوسع المسائل المطروحة في كل عصر أو بحسب احتياجات كل عصر . وأن يوجد في كل عصر من يتفرغ لمتخصص ما من هذه الاختصاصات وأن تنشأ نتيجة لذلك في كل علم من هذه العلوم مدارس متعددة كل ذلك

شيء عادي فليكن نشأت مدرستا الكوفة والبصرة في النحو فليس مستغربا
 إذن أن تنشأ مدارس متعددة في هذه العلوم كأثر من آثار تعدد الفهم
 للنص الواحد والاختلاف في اعتماد بعض النصوص غير القطعية الثبوت
 والاختلاف في اعتماد بعض النصوص وعدم اعتمادها واعتماد بعض
 النقلة أو عدم اعتماده وكأثر من اعتماد بعض المعاني كالقياس أو عدم
 اعتماده وكأثر عن الموقف من خبر الآحاد ومذهب الصحابي وغير ذلك ،
 ومن ثم كان شيء عادي كذلك أن تعطى كل مدرسة رأيا في طريقة الوصول
 للحكم الشرعي ، ومن ثم وجد علم أصول الفقه ، ووجدت مدارس كل
 ذلك كان شيئا عاديا وأن يرافق ذلك نشأة مدارس متعددة كل منها
 يحقق وكل منها قد يصل الى نتيجة تختلف عن الأخرى كل ذلك عادي
 وغير مستغرب وغير مستنكر اذا لم يكن فيه نقض لمعنى لا تحتل غيره
 النصوص القطعية الثبوت القطعية الدلالة .

وأن يقرأ المسلم ما وصل اليه اجتهاد المحققين وأن يقرأ كتبهم
 التي جمعت مسائل الموضوع الواحد بعضها الى بعض كل ذلك شيء
 عادي .

* * *

وأن يصل في كل علم في هذه العلوم ناس الى رتبة الامامة فيه
 بحيث يكون لكلتهم فيه وزن خاص فذلك كذلك شيء عادي . ومن ثم نجد
 الأمة الاسلامية تنتظر الى كلام الشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل
 ومالك وأمثالهم في باب الأحكام العملية ، وتنتظر الى كلام الجنيد وأمثاله
 في باب السلوكيات والأخلاق والسير الى الله ، وتنتظر الى كلام أبي الحسن
 الأشعري وأبي منصور الماتريدي في باب العقائد تنتظر الى كلام هؤلاء
 نظرة خاصة ، وتعطى لكلامهم في هذه العلوم وزنا خاصا . ان هذا
 كله شيء عادي لا نكير عليه وأن يتبنى بعض المسلمين مذهباً فقهياً واحداً
 من مذاهب هؤلاء الأئمة اقتناعاً به وأن يتبنى بعضهم الآخر مذهباً آخر
 فهذا أيضاً شيء عادي .

* * *

وقد أطلق بعض علمائنا كلمة الفقه الأكبر على فقه العقائد ، وأدخلوا
 في الكلام عن العقائد الكلام في السياسات الشرعية والكلام في الأخلاق ،
 كما أدخلوا فيه الكلام عن المعلومات من الدين بالضرورة وغير ذلك
 بخصوا الأحكام العملية بتسمية الفقه وعلم التصوف هو الجانب المتمم

للعقائد والفقهاء فهو لا يخرج عنهما فإذا كانت كتب الفقه تتحدث عن أحكام الصلاة فإن علم التصوف هو الذى يبحث عن حالة الخشوع فيها وطريقة ذلك • وقد سمي الصحابة الخشوع علما فقالوا : « أول علم يرفع من الأرض الخشوع » •

وإذا كانت كتب العقائد تحدثنا عن أسماء الله عز وجل وصفاته فكتب التصوف هي التي تحدثنا عن طريقة الشعور بهذه الصفات ومن ثم كان علم التصوف مكملا لعلم العقائد وعلم الفقه لهذا كله أسمينا هذه العلوم باسم الفقهاء الكبير والأكبر •

ومن الفقه الكبير والأكبر أن يعرف الإنسان طرق الوصول إلى أحكام هذين الفقهاء ، وذلك إما عن طريق المنطق العقلى وإما عن طريق أصول الفقه ، ولا شك أن الذى ليس عنده حد أدنى من كل علم من هذه العلوم الخمسة لا يد أن تفوته معان أو تذبل عنده معان من حقها أن تنمو أو تضمر عنده معان من حقها أن تكون أضخم ، أو تتضخم لديه معان فتأخذ أكثر من حجمها ، أو يقع فى الغلط فى بعض المعانى أو غير ذلك من جوانب الخطأ لأنه إما أن يكون لديه التصور الصحيح فى أمر أو لا فإذا ما قال قائل : هؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل الخلق على الإطلاق ولم تكن عندهم هذه العلوم بمعناها الاصطلاحى للحادث •

نقول : ان نظافة الفطرة ونظافة البيئة • والتلقى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينقل إلى أعظم الكمالات فى كل شيء ، وهل هذه العلوم إلا محاولة لوضع الأمور فى مواضعها بعد أن تعقدت الفطرة واتسخت البيئة وغاب التلقى المباشر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم •

* * *

ولقد كان من أهم أسباب الخلل فى المجتمع الإسلامى غياب التكامل فى العلوم المذكورة : العقائد والفقه والسلوك والعلمان المحيطان بهما أصول الفقه والمنطق إذ أن العلماء ألقوا أن يكتبوا فى كل علم اصطلاح أن يكتب فيه من مسائل دون غيره ، ومن ثم فالمسلم ما لم يأخذ حظه من هذه العلوم كلها يبقى غائبا عن شيء رئيسى ومهم ، فمثلا موضوع الاخلاص يبحث فى كتب التصوف ، وموضوع الجهاد يبحث فى كتب

الفقه . وهو موضوع التوحيد الذى هو أساس الاخلاص والجهاد يبحث في كتب العقائد ، اذا لم يقرأ الانسان هذه العلوم الثلاثة فانه لا يتكامل لديه فهم الأمور ، واذا لم يعرف طرق الوصول الى الأحكام وانضباط ذلك بالقواعد الصحيحة فانه لا يثق بهذه العلوم .

ان كثيرين من المسلمين أخذوا علما من هذه العلوم واستغنوا به جهلا عن بقية العلوم الأخرى ، ولم يلزموا أنفسهم بدراسة مستفيضة للكتاب والسنة . فكان من آثار ذلك خلل كبير .

ان كثيرين من المفسرين يعتمدون على أن أمهات المسائل مشروحة ومحققة ومقررة في محلها من كتب الاختصاص ومن ثم يشيرون اشارة الى بعض الأمور .

وان كثيرين من المحدثين لم يضع في حسابه أن يستقصى أو يؤلف ليعرض لكل المسائل التى تثار أو يمكن أن تثار .

والفقيه تكلم ضمن حدود مسائل الفقه .

والصوفي المحقق تكلم ضمن حدود اختصاصه .

والأصولى والمتكلم كل هؤلاء تكلموا ضمن اختصاصهم ، وتركوا لكل طالب علم أن يكمل نفسه من خلال البحث عن كل ما يلزمه من علوم . ووجد في طبقات العلماء من كمل نفسه وكثيرون فاتهم الكثير الضرورى للتكامل ، وأما عامة الناس فننادوا من تجد منهم من أخذ بحظ كامل من كل ما يلزمه من دراسات فى الكتاب والسنة أو دراسات فى العلوم الخمسة التى انبثقت عنها ، فكان أن وجد خلل ، وزاد الطين بلة عدم وضع التصوف فى محله كمحكوم من العلمين الآخرين العقائد والفقه . إذ أن القاعدة العامة التى قررها السيد أحمد الرزوق فى كتابه النفيس « قواعد التصوف » كما قررها غيره أن الفقيه يحكم على الصوفى ولا يحكم الصوفى على الفقيه إذ لم يوجد صوفى وصل الى رتبة الاجتهاد وسلم له . هذا الوضع انقلب فى العصور المتأخرة ، فصار الصوفى يحكم على الفقيه والفقيه يتبعه ، وأصبح الصوفى يقرر العقائد وعلماء التوحيد يتبعونه ، فحدث خلل كثير ، إذ انطلق الصوفية فى الكلام حتى أصبح كل انسان يتكلم بحرية فيما كان يحكم على قائله

بالمقتل وصار مهمة العلماء التبرير والتقرير وانطلق الصوفيون محققين علم العلماء وفتاوى الفقهاء فغابت عنهم كثير من الأحكام والبدعيات الا من رحم الله تعالى فتوسعت دائرة الخلل وأصبح من الواجبات وضع الأمور في مواضعها واعطاء كل علم من هذه العلوم حقه وتبيين حدوده واظهار ضرورة التكامل فيما بين هذه العلوم مع بيان جوانب الخطأ المنتشرة فيها وعنهما •

ويتساءل بعضهم ، أوليست دراسة الكتاب والسنة مغنية عن هذا كله ؟ نقول : نعم ولكن دراسة الكتاب والسنة تحتاج الى ضوابط وقواعد وأصول لغوية وعقلية : وهذا يقتضى دراسة لأصول الفقه والمنطق ، والكتاب والسنة تعرضا لمسائل كثيرة فى الاعتقاد والعمل والسلوك ، وقد وقع كثير من الناس فى غلط الفهم أو غلط العمل فاقتضى ذلك تحرير هذه المسائل كلها فلم تكن العلوم الثلاثة « العقائد والفقه والتصوف » الا محاولة لذلك • ثم مسائل الحياة متجددة ومعقدة فلا بد من أجوبة عنها تتبثق من الكتاب والسنة ، وان لم يكن منصوصا عنها فى الكتاب والسنة والعلوم الثلاثة كل أجاب فى اختصاصه على هذه المسائل ومن ثم كانت دراسة العلوم الخمسة هى العاصم للفهم الصحيح والدادل على المسار الصحيح فى الأحكام وطرق استنباطها من الكتاب والسنة ، ومن ثم فقد دعونا فى كتابنا : « جند الله ثقافة وأخلاقا » الى دراسة مستفيضة للكتاب والسنة مع العلوم الأربعة ولم نذكر المنطق هناك لأن علماء أصول الفقه توسعوا فيما كتبوه حتى أغنوا عن دراسة علم المنطق بشكل مستقل •

ولعل هذا الجزء الأول من هذه الجولة حتى ههنا ساعد على فهم قضية الفقهاء الكبير والأكبر وضرورة دراستهما ، فلنر فيما بقى من هذه الجولة كيف أن دراسة هذين الفقهاء لا بد منها اما كعلاج أو للوصول الى شىء لا نصل اليه الا من خلالهما •

- ٢ -

ان من مظاهر عصرنا وظواهره أنك تجد ناسا يؤمنون بكليات هذا الاسلام ولا يؤمنون بفرعياته وجزئياته وهؤلاء كثيرون ، فمنهم من

يخلع على الاسلام شعارات العصر فيقول : ان الاسلام دين المساواة
أو الحرية أو الاخاء أو العدالة أو غير ذلك وبناء عليه فأى قضية من
قضايا الحياة يمكن أن يعطى رأيه فيها كأثر عن تصوره لهذه الشعارات ،
ومنهم من يؤمن بالاسلام ككل حتى اذا واجهته بحكم من أحكامه
استغربه وقد يكون الحكم مجمعا عليه • واذا تأملت سر الخلل في ذلك
فانك تجده يعود الى غفلة عن الدراسات الأصولية والدراسات الفقهية ،
فلو أن انسانا درس أصول الفقه ، ثم درس كتب الفقه لاستطاع دائما
أن يربط الكليات بالجزئيات والفروع بالأصول ، ولاستطاع أن
يضبط الأمور ضبطا محكما قاطعا الطريق على الهوى وعلى الخطأ ولأدرك
كذلك أحكام كل ما يصادفه • ولاستطاع أن يميز التمييز الدقيق بين ما هو
اسلام وبين ما هو كفر ، وذلك لن يتأتى لانسان بمعزل عن دراسات
أصول الفقه ودراسات كتب الفقه ويخطيء من لا يرى هذه الرؤية •
انك من هذا المثال تدرك أن المسرى الذى سارت عليه الأمة في وضع
علم أصول الفقه لاستنباط حكم كل فرعية من الفرعيات كان صحيحا ،
لضبط المسار ، فالانكار اذن على وجود القواعد أو على ما انبثق عنها
كان خطأ ، وعدم الدراسة لهذا أو هذا سيبقى الانسان معرضا للخطأ •
وما يقال في باب الفقهيات يقال في باب العقائد ، ويقال في باب
التصوف ولا نريد في هذا كله الا هذه العلوم في وضعها المحرر المحقق
المنقح لأنه اذا خالط هذه العلوم الخطأ فانها تصبح داء بدلا من أن
تكون دواء ، وتصبح أداة انحراف ، وقد أريد لها أن تكون أداة عصمة ،
وتصبح مبعدة عن هدى الكتاب والسنة وهى التى أوجدت لفهم
نصوص الكتاب والسنة فهما صحيحا ، ولجعل الأمور كلها تتبثق
الانبثاق الصحيح عن الكتاب والسنة •

* * *

وهناك ناس يتسرعون في الفتوى تسرعا عجيبا وذلك من أخطر
الأمور « أجرؤكم على الفتوى أجرؤكم على النار » • وبعض هؤلاء
المتسرعين من حملة الاسلام ، وهؤلاء على أنواع منهم ناس قرأوا
بعض من الكتاب والسنة مكثيرين أو مقلين ، ثم أباحوا لأنفسهم أن
يفتوا في أى قضية من القضايا دون أن يملكو أهلية ذلك • وفي مقابل
هؤلاء وأولئك المذكورين في الفقرة السابقة نجد ناسا قرأوا كتاب فقه
أو كتاب توحيد على مذهب معين وغابت عنهم النظرة الكلية للاسلام ،

وغيبت عنهم كليات الاسلام ، وضاعت آفاقهم ولم يعرفوا عصرهم ، ولم يحسنوا أن يضعوا الأمور في مواضعها ، ولم يحسنوا أن يتخذوا المواقف الصحيحة مما حولهم ، ولا أن يتكلموا الكلمة المناسبة فيما يجرى أو فيما ينبغي ، وغلط ناس بين الحكم العقلي والحكم الشرعي والحكم العادي التجريبي ، فاضطربت نتيجة لذلك نظراتهم ، واختلطت تصوراتهم ، ولم يعرف ناس ضوابط الحكم العقلي وضوابط الحكم الشرعي وضوابط الحكم التجريبي ، فحدث نتيجة ذلك غلط كثير وخطأ كثير وضلال كثير ، ومن ثم فإننا ندعو المسلم الى دراسة العقائد الاسلامية كما سجلها أئمتنا العظام ، وندعو المسلم الى دراسة الكتاب والسنة واتجاهات الأئمة عامة في فهم نصوصهما ، وندعو المسلم الى أن يعرف عصره لأن الفتوى تقدر زمانا ومكانا وشخصا ولا تعتبر دعوتنا هذه بمجموعها تتناقض مع بعضها بل هي بمجموعها يكمل بعضها بعضا بل هي فريضة من فرائض الله على المسلم المعاصر حتى لا يقع في خطأ ولا انحراف . فدعوتنا بمجموعها كما سجلناها في هذه الرسالة وكما فصلنا بعضها منها في كتاب « جند الله ثقافة وأخلاقا » هي العلاج الحاسم لكثير من جوانب الخلل بل ان هذه الجوانب من الخلل لا يمكن أن تعالج بدونها .

ولعله بهذا الجزء من هذه الجولة أدركنا أن دراسة هذين الفقهاء هي العلاج لبعض الحالات الخطرة في مجتمعنا وسنرى في الجزء الثالث من هذه الجولة أن دراسة هذين الفقهاء لابد منها كعلاج ولا بد منها لوضوح الرؤية .

* * *

- ٣ -

في عصرنا تنطلق الشعوب والجماعات والأفراد من منطلق المصلحة والمنفعة لتحدد سلوكها على ضوء ما تراه في ذلك وحده دون أن تكون هناك ضوابط محددة لذلك ، وفي عصرنا تجد أن الأعراف والتقاليد اما مرفوضة ومتهرد عليها دون ضوابط ، واما محافظ عليها وملتمزم بها دون تفكير في أصلها وصحتها أو عدم صحتها . وفي عصرنا تجد كثيرين من الناس يهجمون على التحليل أو التحريم بمحض الهوى . وفي عصرنا تجد روح التحليل والاباحة والاستباحة تفرض منطلقها على سلوك الناس . وفي عصرنا تجد المفسرين لدين الله على حسب أهوائهم كثيرين .

وما وافق أهواءهم استحسنوه . وما استحسنوه استباحوه ، وما خالف أهواءهم قبحوه فرفضوه فحرموه .

ولما كان الكتاب والسنة قد وضعا الضوابط والقواعد لمعرفة ما هو مصلحة مقبولة أو مفسدة مردولة لمعرفة العرف الصالح الذي ينبغي التمسك به أو يجوز ، والعرف الفاسد الذي يحرم التمسك به ويجب أن يزول ، لمعرفة الحسن وقواعد الاستحسان ، والقبح وقواعد التقييح ، لمعرفة ما يباح وما يحرم .

ولما لم يكن شيء إلا وقد حدد الإسلام ضوابطه وقواعده ومن ذلك الاجتهاد فالكتاب والسنة كما حددا كثيرا من الأحكام فانهما وضعا لقواعد للوصول الى معرفة كافة الأحكام . لما كان الأمر كذلك . ولما كان واقع الحال ما وصفناه فان المسلم لا يسعه في عصر هذا شأنه إلا يكون عنده المام بعلم أصول الفقه ، والمام بالفقه نفسه . ومتى درس المسلم علم أصول الفقه فانه لابد أن تتغير نظرتة الى الفقه نفسه والى اتجاهات الأئمة والى أسباب الاختلاف في كثير من الأحكام . وسيرى أن لذلك ما يبرره ، ويستحيل على منصف أن يدرس علم أصول الفقه ، ثم يبقى رأيه في الفقه ومذاهب الأئمة الفقهية على حاله . ومن ثم باننا نوكد على دراسة علم أصول الفقه والفقه في عصر لا يعصم من ضلالاته بعد توفيق الله الا العلم . ومع أصول الفقه لابد من دراسة علم أصول الدين الذي هو علم العقائد الاسلامية في كتبه الأصلية لأنه لعلم الامام الذي به يتحدد المسار الصحيح للمسلم .

وإذا نظرنا الى العلة الثانية بعد علة الجهل في أسباب ما ذكرناه بانها فقدان التقوى والورع وإذا كان هذا وأمثاله محله علم التصوف لمحرر فان دراسة هذه العلوم بمجموعها هي الدواء لكثير مما ذكرناه في هذه الفقرة ، فهي نقطة أخرى اذن تضاف كموجب من موجبات دراسة علوم الفقهاء الكبير والأكبر .

ان أي فراغ ثقافي يوجد في شخصية المسلم في عصرنا يعرضه لأن يقع في دائرة من دوائر الاضلال المتعمد ، ان هذا العصر الذي لم تخل فيه دائرة من دوائر الثقافة الاسلامية الا وقد تخصص فيها قوم من الكفرة بقصد الانسداد من خلال هذا التخصص لا يسع المسلم أن يكون جاهلاً في أي جانب من هذه الجوانب .

وفي عصرنا حيث يقف المسلم بين افراط وتفريط في موضوع علم التوحيد أو التفقه أو التصوف لابد أن يبذل جهدا ليضع الأمور في مواضعها . وليمكك الميزان الذي يزن به ما حوله ، فيعطيها مناعة ، ويضعه على الحقيقة في جوانب من المعرفة وفي الدعوة الى الله عز وجل في عصرنا الذي أصبح العلم فيه هو الأداة الأقوى . نقول هذا مع معرفتنا أن علوم الفقه والتصوف والتوحيد دخل فيها ما لم يقله أئمتها المعتمدون وبما لا يتفق مع أصولها على تفاوت في ذلك .

فمثلا نجد بعض المؤلفين في الفقه يدخلون بعض المسائل في كتب الفقه ويصدرون فيها أحكاما بناء على تعليقات طيبة كانت رائجة في عصرهم ، وليست صحيحة ، وليس لها أصل في الطب النبوي ، ونجد بعضهم يدخل بعض المسائل ويصدر بعض الأحكام بناء على أحاديث مكذوبة أو ضعيفة مما لم يتكلم به امام المذهب ، ومما لا تجده في أى كتاب نقل فيه أئمة المذهب المذهب وبما لا يتفق مع أصول المذهب أصلا . فاذا قرأ الناس كتاب فقه من هذا النوع ومرت عليهم مسائل من هذا القبيل نظروا الى العلم وأهله بانتقاص .

وفي كتب التوحيد وجد التعقيد وانعدام ذكر الدليل أحيانا ، وأحيانا يذكر الدليل ولكنه ليس الدليل الذي تبنى عليه العقائد وكيف والعقائد هي العقائد .

وهذا كله يقتضى وضع الأمور في مواضعها على بصيرة ، ثم ان المسلم المعاصر ، بحاجة الى أن يعرف جوابا على ما يصادفه امامه في هذا العصر بالدقة التي لا يحتمل غيرها دين هو وحده الدين الحق .

ولن يتم ذلك الا بالدراسة المستوعبة لكل ما تلزم دراسته أصولا وفروعا مع التحقيق . ان المسلم بحاجة الى تربية أخلاقية وروحية تحفظه من مفسد العصر وكل ذلك لابد منه وللوصول الى هذا كله لابد من جهد يبذل في الفقهاء الكبير والأكبر وأصولهما .

وفي كثير من الأحيان يقع الانسان ضحية خدعة مزورة ، ومن ذلك أنك تجد كثيرين يحاولون أن يضلوا الناس عن شريعة الله بحجة الاختلاف في الشريعة الاسلامية وبهذه الحجة يحاولون أن يعطلوا الشريعة الاسلامية متناسين أن ما وقع فيه الاختلاف قليل بالنسبة الى الكثير

الذى لا خلاف فيه ، فاذا حدث خلاف في بعض فرعيات الزكاة فلا خلاف حول فرضية الزكاة ، واذا حدث خلاف حول فرعيات في نظام الارث فلا خلاف في نظام الارث ، واذا حدث خلاف حول فرعيات في حد السرقة أو حد الزنا فلا خلاف في حد السرقة والزنا وأمثال ذلك كثيرة وهؤلاء بحجة الخلاف القليل يريدون أن يلغوا كل شيء في الشريعة .

وهناك ناس من أبناء الفرق المنشقة عن جسم الأمة الاسلامية يحاولون أن يعطوا أنفسهم صفة مذهب من المذاهب أو طريقة صوفية فكما أن هناك طرقا صوفية اسلامية فهم يشكلون طريقة صوفية ، وكما أن هناك مذهبا حنفيا وآخر شافعيًا منهم كذلك مذهب من هذه المذاهب مع أنهم ينقضون أصول الشريعة كلها .

قال تعالى : « وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة » (١) . من معنى هذا النص نجد أن الأمر بالعبادة والاحلاص فيها والصلاة والزكاة من بديهيات كل وحى ورسالة أنزلها الله عز وجل فعندما نجد ناسا يعطلون التوحيد والعبادة والصلاة والزكاة فهل يبقى بعد ذلك دين أصلا ؟ ومن ثم لا بد أن يكون واضحا الحدود التي يصح فيها الاختلاف وما هي الحدود التي اذا تجاوزها الانسان في الفهم يضل أو يكفر ؟

أولا : ان هناك قضايا بديهية أى انكار لها أو خروج عنها يعتبر كفرا وخروجا عن الاسلام ، وهى التى يسميها العلماء : القضايا المعلومة من الدين بالضرورة .

ثانيا : ان هناك قضايا لا يصح الاختلاف فيها ولا يصح أن تفهم الا ضمن منحى واحد ومن خالف فيها لا يكفر ولكنه يخرج عن الفهم الصحيح الذى كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو بهذا لا يكون كافرا وانما يكون ضالا وللضلال درجات .

ثالثا : ان هناك قضايا يصح الاختلاف فيها ولا يمكن ألا يكون فيها اختلاف فما دام هذا الاختلاف مبنيا على قواعد وضوابط صحيحة ولم يدفع اليه هوى فهذا الذى لا غبار عليه .

(١) البينة : ٥٥

رابعا : ما ثبت بنص قطعى الثبوت قطعى الدلالة سالما من المعارضة والنسخ وما ثبت بالاجماع القطعى الثبوت القطعى الدلالة المتوافرة فيه شروط الاجماع المجمع على ثبوته فهذا كله من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة التى يعتبر انكارها كفرا قبل البيان أو بعد البيان على خلاف فى ذلك وما اختلف فيه أئمة الاجتهاد ومما يحتمل الاجتهاد ويسوغ فيه فهذا الذى لا حرج فى الاختلاف فيه اذا كان المتكلمون أهلا للاجتهاد واختلفوا بسبب دوجب للاختلاف اما لتعارض فى النصوص أو لاختلاف فى ثبوت بعض الآثار أو لاحتمال النص نفسه أكثر من فهم صحيح سليم لا يعارض اجماعا ولا يعارض نصا قطعى الثبوت قطعى الدلالة .

وأما ما خالف فيه أهل الأهواء النصوص القطعية الثبوت القطعية الدلالة أو خالفوا فيه الاجماع مما اتكأوا فيه على شبهة فهذا هو الضلال والبدعة .



ما ذكرنا فى هذا المقام من أجوبة سريعة لا يغنى عن التفصيل ولكنه يضع أمام المسلم نقاطا تريبه ضرورة الفقه والعلم فى مثل هذا العصر ، ان عصرا فيه مثل هذه الطروح الكثيرة لا خيار أمام المسلمين ألا يكون على بصيرة فى كل أمر .

انك فى أى لحظة معرض لأن تصادف أصنافا من الناس كل له رأيه وشبهه وطروحه التى من خلالها يريد أن ينسف دين الله نسفا وأنت كمسلم مطالب ألا تقع فى شركه (١) ثم أن تقييم الحججة عليه وكيف يتم هذا أو هذا دون ابصار واضح للأهوار كلها ومعرفة فى الخطأ والصواب ومواطن الخلاف والاختلاف والرأى المسدد فى ذلك كله .



ان هناك ناسا بحجة فساد العصر يتركون الالتزام والتطبيق وهو منطق عجيب لأن التكليف فى هذه الشريعة بحسب الوسع والطاقة فما من حالة كلف الله عز وجل فيها أحدا بما لا يطيق ولكنها الطاقة الحقيقية للانسان ، وقد فتح الاسلام للانسان بابى الرخصة والعزيمة بحيث يستطيع أن يلج باب الرخصة حيث يصعب عليه باب العزيمة .

(١) بفتح الشين والراء .

وإذا فسد العصر فليس أدب المسلم أن يفسد بفساده ، بل واجبه أن يستمر على الصلاح وأن يصلح ، قال عليه الصلاة والسلام : « لا تكونوا امة تقولون ان احسن الناس احسنا ، وان اساءوا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم ان احسن الناس ان تحسنوا وان اساءوا فلا تظلموا » وقال تعالى « **والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة انا لا نضيع أجر المصلحين** » (١) • والمسلم عليه أن يقوم بحق الله عز وجل عليه في كل ظرف وفي كل وضع : « **ان ابراهيم كان امة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين** » (٢) •

ان المسلم الحق يقوم بحق الله ولو انفرد عن العالم أو انفرد العالم عنه وهو مكلف ببذل الوسع : « **فانفقوا الله ما استطعتم** » (٣) • الا أن هذا الوسع وهذه الطاقة والحدود التي يجوز فيها الترك ، والمخالفات التي لا يجوز فيها الترك ليست سائبة بل هي نفسها موضحة في شريعة الله عز وجل يعرفها العالم ويجهلها الجاهل وليس أمام المسلم المعاصر خيار أن يجهلها فلم يبق أمامه الا العلم ، والعلم الذي يحقق هذا إنما هو علم الفقهاء الكبار والأكبر •



وهناك ناس بحجة فساد العصر يقفون موقفا متشددا • وللتشدد مظهران :

المظهر الأول : حمل الانسان نفسه على العزيمة وهذا أدب اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« **كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع في الحرام** » • « **لا يبلغ انسان حقيقة التقوى حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس** » •

ان حمل الانسان نفسه على العزيمة طيب وكريم ، فما لم توجد الذرى العليا في القدوة فان الناس يضيعون أو يتساهلون ، فيؤدى ذلك الى التفات والتبرير الخاطيء للنفس عن أكثر الخلق •

وأما المظهر الثانى : وهو التشدد بحجة فساد العصر في الفتوى بحيث يبحث الانسان دائما عن أشد الأقوال في كل المذاهب ليحمل الناس

(٢) النحل : ١٢٠ •

(١) الأعراف : ١٧٠ •

(٣) التغابن : ١٦ •

عليها ويطالب الناس بها ، وأحيانا يكون مذهبيا ومع ذلك يفتى بغير مذهبه لأنه الأشد وأحيانا قد يبلغ به التشدد في محاسبة الناس الى درجة يخرج بها الأتساء عن طبيعتها والحياة الاسلامية عن فطرتها • فالمزاح المباح يصبح منكرا ، والمداعبة اللطيفة تصبح منكرا والضحك الغالب يصبح حراما ، والعبوس الدائم يصبح أدبا • والضرب المبرح للأولاد يعتبر تربية ، وأين هذا كله من فكرة أدب الوقت التي تحدث عنها علمائنا ؟ وأين هذا من أدب الصحابة ؟ وأين هذا من هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ « كان أصحاب رسول الله يتبادحون بالبطيخ حتى اذا جاء الجد كانوا هم الرجال » ، « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أفكه الناس مع نسائه » وأركب رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن والحسين على ظهره وقال : « نعم الجهل جعلكما ونعم العدلان أنتما » • وكان الشافعي يقول : ليس من الأدب الوقار في البستان — أى فى النزهة — وكان الصحابة يتصرفون فى القضية الواحدة أكثر من تصرف ، وكان صلى الله عليه وسلم يسكت عن الجميع • وكره الفقهاء أن يعظ الانسان على المائدة بالذكير بالنار وكان رسول الله اذا خير بين أمرين يختار أيسرهما ما لم يكن اثما • وفرق الفقهاء بين المنكر المجمع عليه وبين ما اختلف الفقهاء فى حكمه • وكل ذلك قضايا ينبغى أن يكون الانسان على فقه دقيق فيها لكيلا يخرج الناس وطريق ذلك كله العلم الدقيق بالفتحين الكبير والأكبر مع دراسة الكتاب والسنة فذلك وحده هو الذى يجعل الانسان على موقف سليم مما يمكن أن يجابه أو يواجه •



وهناك ناس يتركون فرائض الوقت لأدنى مشقة يتصورونها : ان شريعة الله عز وجل رفعت الاعنات والمشقة والخرج عن الانسان قال تعالى : « ويضع عنهم أصرهم والأغلال التى كانت عليهم » (١) وقال : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » (٢) وقال : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » (٣) ولكن ناسا من الناس يفهمون هذا كله فهما موسعا لدرجة أن بعضهم يتفلتون من التكليف كله بحجة ذلك وبحجة أن الله غفور رحيم • وبعضهم لأدنى مشقة أو لأدنى وضع غير

• (٢) الحج : ٧٨

• (١) الأعراف : ١٥٧

• (٣) البقرة : ١٨٥

مادى ينتقلتون من الفرائض وكل ذلك جهل في موضوع التصور العام
من التكليف ومداه والحالات التى تطراً على أصل التكليف فتخفزه
وترفع الحكم وكل ذلك يحتاج الى بيان وتربية عليه وذلك لا يكون بلا
علم ومواطن هذا النوع من العلم انما هو الفقهان الكبير والأكبر •

* * *

وهناك ناس ينسون أن فى الشريعة فتوى وتقوى ومراعاة لقضايا
ذوق والمروءات ومن ثم لا تجد ورعا فى التطبيق ولا مراعاة للمشاعر
العواطف ، ولا بد أن يأخذ هذا طريقه الى الوضوح من خلال التعليم
التربىة فيربى الانسان على الورع مع تعريفه على الحكم الشرعى ،
يربى على مراعاة قضايا الذوق العام كما يربى على تنفيذ الحكم
شرعى يقول عليه السلام :

« انكم قادمون على اخوانكم فأصلحوا رجالكم وأحسنوا لباستكم
حتى تكونوا كأنكم شامة فى أعين الناس فان الله لا يجب الفحش ولا
تفحش » •

ويتحدث الفقهاء عن قضايا تخل بالمروءة ويرتبون عليها سقوط
دالة الانسان مما يشير الى أن هناك بابا واسعا فى الشريعة هو
بمراعاة العرف الصالح والرأى العام الفطرى السليم وأن الشريعة
تحت الباب لمواضيع الأريحيات والنخوة والشهامة وكلها قضايا ينبغى
من تأخذ حظها فى فقه المسلم لأن اغفالها يبقى ثغرات فى شخصية المسلم
تليق ومواطن ذلك كله الفقهان الكبير والأكبر •

* * *

وهناك ناس يلتزمون بحد أدنى من الشريعة وينكرون على من
تزمون بالحد الأعلى من التطبيق وهناك ناس ينكرون على من يأخذ
لحد الأدنى من الشريعة غير مفرقين بين حق التربية وحدود الانكار •

ذهب بعضهم الى أن كل ما اختلف فى حكمه أئمة الاجتهاد وكل ما
صلوا اليه يعتبر من الشريعة الاسلامية وأن أقوالهم كلها تدور بين
خصلة وعزيمة أو بين حد أعلى من الشريعة وحد أدنى ومن ثم قال
شافعى : أجمع العلماء على أن الله لا يعذب فيما اختلف فيه العلماء ،
يصعب على كل الناس أن يلتزموا بالحد الأعلى من الشريعة بشكل

دائم لأن ظروف الناس متفاوتة ، ولو كان الشارع لم يرد أن تراعى
الحالات المختلفة لجعل نصوص الشريعة بحيث لا يكون في القضية
الواحدة إلا وجه واحد ، فشىء عاىء اذن أن تكون بعض القضايا
فيها أكثر من رأى ، والمفروض فى هذه الحالة أن تسعى التربية الى
جعل المسلم فى القمة وفى الوقت نفسه ينظر بعين العذر الى أولئك الذين
لا يستطيعون الارتقاء الى القمة ولكن يحدث أحياناً أن هؤلاء الذين
لا يستطيعون الارتقاء الى القمة العليا ينظرون الى الآخذين بالعزائم
بعين الانتقاص •

فمثلاً القمة فى موضوع الحجاب الاسلامى أن تستر المرأة المسلمة
جسمها كله بما فى ذلك الوجه ، وهناك أقوال أخرى تبيح كشف شىء
مما دون ذلك • والمفروض بالمسلم أن ينظر الى امرأة تستر كل شىء
باكبار ولكن غلطا يقع فيحمل مسلم جاهل على هذا الالتزام العالى نحو
الله وفى المقابل نجد ناساً يطالبون كل امرأة بهذه القمة ، وينكرون على
من تلتزم بحد أدنى من الشريعة فى هذا الشأن فى عصر ساءت ظروفه
وتعددت ضغوطه حتى أصبح الالتزام بالحد الأدنى فى بعض البيئات
بعدل مقام الصديقية فى عصور أخرى •

ويلاحظ أن أدب الشارع فى موضوع الدعوة والتربية التدرج ومن
ثم قال علماء المسلمين : ان المرشد لا يتقيد بمذهب لأن مذهباً واحداً
لا يسع الناس ، ولا يسع الحالات ، وكثيرون من الناس لا يحسنون
وضع هذه الأمور فى مواضعها ان فى العمل والتطبيق أو فى الانكار
والتأديب وبعضهم ينكر على من يحسن وضع الأمور فى مواضعها فى
هذا الشأن ولاشك أن المبتدىء غير المنتهى وحساب الأول غير حساب
الثانى وحساب العالم غير حساب الجاهل وقديما قالوا :

« حسنات الأبرار سيئات المقربين » •

وهناك ناس تمر العبارة فى مكان ما أو النص فلا يستطيعون
وضعه فى اطاره الحقيقى ويتجرأون من خلال ذلك على الفتوى دون
معرفة بحقيقة الأمر من كل جانب •

فتراهم تمر عليهم عبارة فى باب الحدود حول ما يسقط الحد

فيفهمون من ذلك أن المسقط للحد يعنى الإباحة وتمر عليهم عبارة في باب العورة في قضية الصلاة فيرون جواز كشف العورة اذن وتمر عليهم عبارة صحابي في وضع معين فيحملونها على وضع مختلف تماما وفي كثير من الأحيان تجد الموضوع الواحد ترتبط به قضايا كثيرة وله حيثيات دقيقة فتراهم لأدنى رؤية لجانب من الموضوع يتجرأون على الفتوى في الموضوع كله •

وهل العلاج لهذا كله الا العلم المحيط ولتكن هذه هي نهاية هذه الجولة •

ولعله اتضح من خلالها الى حد ما ضرورة الدراسة المستوعبة للفقهاء الكبير والأكبر كما لعله اتضح أن نشأة هذين الفقهاء شيء عادي تماما بل لا بد منه وأن المسلم ليس أمامه خيار الا أن يدرس علوم هذين الفقهاء وأصولهما •

* * *